إيمان قلب

للأستاذ كامل محمود حبيب

«لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا أن الله هو التواب الرحيم» (قرآن كريم)

اندفع الجيش اللجب يوفض إلى غايته — إلى بلاد الروم — يطوى فجاج البيداء في صبر ، ويقتحم فيافي الصحراء في جلد ؛ يغذ السير لايهاب الموت ولايخشى الردى . ومن أمامه : الشقة بعيدة ، والمسلك وعر ، والعدو ذو قوة وذو عدد . ومن بين يديه : القيظ تتوقد سماؤه فتدمغ الجلد ، والسوافي تهب عاصفة فتسفع الوجه وتقذى العين ، والضيق يطحن الصبر ويعبث بالقوة. ومن خلفه ، في المدينة ظلال وارفة يهفو إليها القلب وتصبو إليها النفس . ثم طال بالناس السفر وامتد الطريق ، فاجتمعت عليهم فنون ثلاثة من العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، فاشتدت بالمسلمين الحال وغشيتهم المحنة : فكان النفر يأخذون التمرة الواحدة يلوكها الواحد منهم حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه ليشرب عليها جرعة من ماء حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى على التمرة إلا النواة ، وكان القيظ اللافح يصيبهم فيحسون لذع الحرة في حلوقهم فيخيل إليهم أن الرقاب توشك أن تنقطع من شدة العطش ، فلا يجد الواحد منهم مفزعاً إلا أن ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . ولكن الإيمان كان يفعم القلوب فيدفعها إلى ميدان الجهاد في حماسة لا تعرف الخور ، وفي جرأة لا يتسرب إليها الضعف ، وفي بسالة لا تؤمن بالتردد . واندفع الجيش يوفض إلى غايته

وانطوت الأيام والجيش في سبيله ، يجالد الشدة بالإيمان ، ويصارع الغير بالعقيدة ، ويكافح الخطب بالصبر ؛ وهو لا يحس أن أناساً بهم صعر إلى الثمار والظلال قد أبطأت بهم النية عن الجيش فتخلفوا عن الجهاد في غير شك ولا ارتياب ، وهم نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم ولا يغمزون في إيمانهم ... نفر صدق من بينهم كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة ، وهو فتى أيد جلد ، فارع القوام وثيق الأركان ، تتألق على جبينه سمات القوة والفتوة ، ويتوثب من إهابه النشاط والشباب ، لم يقعد به من الجهاد نفاق ولا صرفته شهوة الدعة ، ولكنه رأى أصحاب النبي (ص) يتهيأون للغزو فطفق يغدو لكي يتجهز معهم فيرجع — آخر النهار — ولم يقض شيئاً ، وإنه على ذلك لقادر . ولم يزل يتمادى به الأمل حتى شمر الناس بالجد ...

وأفاق كعب من غفوة الأمل فإذا الناس قد أسرعوا وتفرط الغزو ، وهو في مكانه لم يقدر له أن يهم فيرتحل فيدرك الركب . لشد ما أحزنه أن يضرب في أرجاء المدينة فلا يرى له أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه في النفاق ، مطعوناً عليه في الدين ؛ أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء !

وعاش الرجل زماناً غريباً في داره ، يضل في غاشية من خواطره

ولذلك عرف المسلمون ألعاباً متعددة للتسلية . على أن الإسلام في حرصه على أهله ومروءتهم ورقتهم يكره لهم بعض الألعاب كالقمار مثلا .

وعبء الخدمة الاجتماعية الجليل الذي تتصدى اليوم بعض السيدات لحمله حملته المرأة المسلمة منذ قديم ، فقد كانت تتعهد المريض والجريح بالمداواة والعناية والعون . وفي الحرب كانت تصنع للمحاربين طعامهم وتحرس رحالهم .

هذه إشارة عابرة لا يتحمل المقام تعزيزها بالنصوص والأسانيد ، ولكنها حرية أن تنبه إلى ذلك التراث الفخم الذي يعيبنا ألا نوليه دراسة باحثة صابرة وأن ندعه صامتاً لا ينطق به لسان ولا قلم ، والذي لا تعدو الاتجاهات الغربية الحديثة أن تكون ضرباً على بعض قوالبه .

ليت حماستنا لديننا وتاريخنا تتوقد ... وليت إمامتنا للعالم تتجدد .

لبيب السعيد

السود ، ويضطرب فى لجة من الندم ، لا يجد الراحة ولا الأمان ولا يلمس الهدوء ولا الاستقرار . وهو يعجب — أشد العجب — كيف وسوس له الشيطان فتردى فى هاوية مالها من قرار ، وإنه لذو قوة وإيمان لا تموزه الراحلة ولا يفتقر إلى الزاد ، وإنه لمن أصحاب بيعة العقبة الكبرى ، سبق إلى الإسلام عن عقيدة ثابتة وجاهد الكفار عن إيمان عميق .

وتناهى إلى الرجل خبر عودة النبى (ص) قافلا من غزوة تبوك فتناورته الأوهام وساورته الهموم واغترق فى لجة من الحيرة. والارتباك . وخشى الرجل أن يلقى النبى (ص) وقد جللته الزلة ودنسته الخطيئة وأشفق على نفسه أن يبدو أمام المسلمين وهو يتعثر فى ذنبه فيعجزه أن يتلمس العذر أو أن يجيد الدفاع ، فحضره بثه وطفق يقلب الرأى يريد أن يزوّر كلاماً يجد فيه الخلاص أو يتمق حديثاً يدرأ به غضب الرسول (ص) . غير أنه أيقن — بعد لأى — إنه لن ينجو إلا بحديث فيه الصدق والإخلاص والصراحة جميعاً .

وصبح رسول الله (ص) قادماً فأسرع إليه المتخلفون يعتذرون بالكذب ويحلفون بالباطل ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم النبى (ص) علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله .

وأقبل كعب بن مالك فسلم فتبسم النبى (ص) تبسم المغضب ثم قال « تعال » فجاء الرجل يمشى على مهل والحياء يوشك أن يبعثر نفسه والخجل يكاد يبدد فؤاده ... جاء يمشى حتى جلس بين يديه فقال له « ماخلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » فقال كعب « يارسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكنى ، والله ، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله والله ما كان لى عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » قال رسول الله (ص) « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

ورأى رجال من بنى سلمة ما كان فثاروا واتبعوا الرجل يؤنبونه على ما كان منه ، وحاولوا أن يرغموه على أن يرجع إلى النبى (ص) فيعتذر إليه بما اعتذر به إليه المتخلفون غير أن إيمان الرجل دفعه عن أن يتردى فى الهاوية مرة أخرى ، فمضى ...

ونهى النبى (ص) عن كلام كعب بن مالك — وعن كلام رجلين آخرين اثنيا مثل ماأتى كعب ، هما : مرارة بن ربيعة وهلال ابن أمية — فخاصم الناس الرجل وتغيروا له ، فأحس كأن فى نظراتهم سهاماً من المقت والكراهية تتناوشه كلما مر بهم وكأن الأرض ووقد تنكرت له حين عافه الأهل واجتنبه الرفيق فما هى بالأرض التى عرف . وكان كعب شاباً فتياً فما قعد ولا استكان ، فراح يشهد الصلاة فى مكابرة ويطوف بالأسواق فى إصرار ، ولكن واحداً من المسلمين لم يكلمه ؛ ثم يأتى مجلس رسول الله (ص) فيسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فما يظفر منه برد السلام .

وطالت عليه جفوة المسلمين فأحس مس الضيق فى قلبه ، فانطلق إلى دار أبى قتادة ، وهو ابن عمه وأحب الناس إليه ، فتسور عليه جداره وسلم عليه فما رد السلام ، فقال له يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ » فسكت . فعاد فناشده ، فسكت . فعاد فناشده ، فقال له « الله ورسوله أعلم » ففاضت عينا الرجل وتولى يضرب فى الأرض وقد أمضه الحزن وأرهقه الأسى ، يتخبط فى ظلمات من الضيق والألم ، فما راعه إلا نبطى من الشام يدفع إليه كتاباً فى سرقة من حرير من ملك غسان يقول فيه « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك »

لقد قرأ كعب كتاب الملك فاوسوست له نفسه بريبة ، ولا اختلج قلبه بشك ، ولا خطفه بريق الأمل ولا سيطرت عليه روعة السلطان. هذا القلب أفعمه الإيمان الحق فسما بالرجل على النوازع الأرضية ، وغمرته العقيدة الصادقة فسخر من بهرج الحياة وزيف الدنيا ، وأشرق فيه نور السماء فترفع على رب التاج والصولجان. لقد كان الرجل سماوياً يعيش بين دفقات النور الإلهى ينعم بأفراح الجنة وهى تتألق فى قلبه ويسمد باللذة الروحانية وهى تتدفق بين جوانحه ؛ فأعرض عن حديث الملك الغسانى لأنه حديث أرضى فيه التراب والطين مماً .

يالله القلب الكبير ! لقد تساقطت كلمات الكتاب على قلب الرجل